

دور الأمير عبد القادر الإنساني في أزمة الشام الطائفية سنة 1860م



د/ طاعة سعد
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة معسكر - الجزائر -

الملخص

إن الأعمال المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية التي قدمها الأمير عبد القادر لوطنه والعالم ككل، تحتم على الدارس والقارئ للتاريخ أن يقف عندها لأخذ العبر من عظمة هذه الشخصية لقد تلخصت إنسانية الأمير عبد القادر في كثير من المواقف، سواء هنا في أرض الوطن لما كان يحارب جيوش الاحتلال أو في المنفى وتحديداً بالشام، إن الأمير عبد القادر استمد سلوكه الإنساني من أصول دينه الإسلامي، خاصة في احترام حياة وحقوق المدنيين والعسكريين، كعدم تعريض النساء والأطفال والشيوخ للخطر كالقتل أو التعذيب، وحرص على ذلك زمن الحرب وحث عليها جنوده - هذه الإنسانية التي تميز بها الأمير لم تكن مع بني جلدته فقط وإنما كذلك مع النصارى والأوروبيين الذين اعترفوا له بهذه الخصال، ومن بينهم مترجم الأمير يوهان كارل بيرنت الذي قال: « إن الأمير إنساني إلى أبعد الحدود وقد أوصى جنوده بذلك، حيث كنت مع بعض الحرس في ندرومة ورحب بي الخليفة نفسه، وأمر بإعطائي ألبسة جديدة وبندقية، كما قدم لي حصاناً استعمله ريثما يتصل بالسلطان ويتسلم منه أوامره بشأني ». إن إنسانية الأمير عبد القادر لا حدود لها، واعترف له فيها العدو قبل الصديق، لن تنس الدول المسيحية الأوروبية والشام والعالم ككل، ففي محنة الشام الطائفية سنة 1860م ظهرت جهود الأمير عبد القادر الجزائري في سبيل ترسيخ القيم والمبادئ الإنسانية، وتمكن بفضل جهوده وصبره وحنكته من إنهاء هذه المحنة التي أملت بسكان الشام، وتهافتت بعض الشخصيات العالمية والدول في إرسال الهدايا والأوسمة ورسائل الشكر والعرفان، كما نوهت الصحافة العالمية بجهوده وخصاله ومواقفه النبيلة والإنسانية، ومن النماذج عن الهدايا التي تلقاها الأمير من حكومات هذه الدول مثلاً روسيا قدمت له الصليب الأكبر للنسر الأبيض، والسلطة العثمانية منحتة وسام المجيدية من الدرجة الأولى، وفرنسا أرسلت له الوشاح الأكبر لجوقة الشرف.

Summary:

Emir ABd Elkader Human Role in Syria's (sham's) Confessional Rivalry Crisis Of 1860.

Emir ABd Elkader Personality was based on many qualities: He Was an Intellectual, Devout Polite, Politician and a perfect Diplomat. He was Known as being a man who Kept his promises and righteous and he was very humane in all national issues. He was Famous all over the world wither, he traveled voluntarily or taken by Force and thus. Because of his values, he was very nature despite his young age. He succeeded in Founding a state and Negotiated with France which was the biggest power of the Mediterranean Sea, He mixed between Religion and Politics and made Islam. the project of his State in his internal as well as international relations, when he was Forced to exile in Syria he witnessed a confessional crisis which could have led Damascus to destruction intervene if he did not humanely .From this we could answers to many questions:

- Causes of confessional war in Syria (sham's) 1860.
- Causes of the inhabitants of Syria acceptance of Emir's mediation in solving the crisis.
- Humane aspects shown by Emir in crisis, solving which became a world example.

مقدمة:

والقارئ للتاريخ أن يقف عندها لأخذ العبر من عظمة هذه الشخصية المتكاملة، فالأمير الذي ولد أوائل 1807م «قد أبدى منذ نعومة أظفاره نباهة ونجاة، جعلت والده يفضل على غيره من أبنائه، وفي سن مبكرة حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ العلوم اللغوية والدينية، وترى على ركوب الخيل كما تلقى علوم الحساب والجغرافيا والتاريخ على يد الشيخ أحمد بن طاهر قاضي أرزيو، ثم أرسله والده إلى وهران لإتمام تعليمه»⁽¹⁾. كما تمكن الأمير من أن يجمع في شخصيته القوية صفات كثيرة فكان إنسانياً، مثقفاً، متديناً، متخلقاً، سياسياً بارعاً، ودبلوماسياً شجاعاً، اشتهر بالمحافظة على الوفاء بالعهد وصدق الوعد فكان حريصاً أن «الأسير المسلم إذا سرحه العدو وشرطوا عليه أن لا يغزوهم يلزمه الوفاء»⁽²⁾. وهذا في حقيقة الأمر قليل من

ميّزت شخصية الأمير عبد القادر صفات كثيرة قلما تتوفر عند رجالات صنعت التاريخ، وأول هذه الصفات رجاحة العقل فبالرغم من صغر سنه، تمكن من تأسيس دولة فتية وفاوض فرنسا أكبر قوة سياسية وعسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك، وتحلى الرجل بوطنية لا نظير لها، كما كان مسلماً ناسكاً وقومياً عربياً يحب عروبته، ولكن أهم خصال هذا المقاوم هو إنسانيته النابعة من أخلاقه وقيمه الإسلامية التي تربى عليها ونشأ في رحابها. إن الأعمال المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية، التي قدمها الأمير عبد القادر لوطنه والعالم ككل، تحتم على الدارس

كثير مما ذكر فيه .

جوانب من إنسانية الأمير :

تلخصت إنسانية الأمير عبد القادر في كثير من المواقف ، سواء هنا في أرض الوطن لما كان يحارب جيوش الاحتلال أو في المنفى وتحديدًا بالشام ، ومن هذه المواقف الإنسانية المشرفة :- هو أنه عندما عاد الأمير من جرجرة وال تيظري وسمع بخبر قتل الأسرى « تألم كثيراً وكتب في رسالة إلى الملك الفرنسي لويس فيليب شرح له فيها الظروف التي أحاطت بقتلهم ، واتهم فيها ضباط الجيش الفرنسي معتبراً إياهم السبب في ذلك المصير المؤلم ، وعرض عليه من جديد فكرة تحقيق تبادل الأسرى لديهم مع الأسرى المسلمين ، لكنه لم يتلق جواب ومن ثم أسرع في إطلاق سراح من كان في قبضته من الضباط الأحد عشر الباقين ، ولعل ما يعكس سريره أنه أرسل مع الأسرى الفرنسيين المفرج عنهم السيد قادة بن هاشمي ليوصلهم إلى وهران ، وكتب هؤلاء الأسرى بعد عودتهم إلى ديارهم شهادات عن حسن المعاملة التي تلقوها من الأمير »⁽³⁾ . وفي هذا الصدد ركز الأمير على حماية الأسرى وهي من صميم واجباته الدينية والوطنية ، يقول شارل هنري تشرشل في مؤلفة حياة الأمير عبد القادر : « إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداهها الأمير عبد القادر نحو الأسرى ، ليس لها مثال في تاريخ الحروب فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه »⁽⁴⁾ .

إن الأمير عبد القادر استمد سلوكه الإنساني من أصول دينه الإسلامي ، خاصة في احترام حياة وحقوق المدنيين والعسكريين ، كعدم تعريض النساء والأطفال والشيوخ للخطر كالقتل أو التعذيب ، وحرص على ذلك زمن الحرب وحث عليها جنوده

و « التزم بالقاعدة التي تحظر تحريق العدو بالنار أثناء الحرب ، انطلاقاً مما روى من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تحرقوا بالنار ، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار » والقاعدة التي تمنع قطع الشجر المثمر وتخریب العامر الكنيسة كان أو غير ذلك ، وعدم قتل المواشي وتحريق النخل وحظر حرق البيوت والشجر ، إذا كانت لهم معاقل وتخریب البيوت »⁽⁵⁾ - ومن المواقف المشرفة التي سجلها التاريخ على مدى إنسانية الأمير عبد القادر ، هو أنه فرض ضريبة على القبائل لحاجة الدولة الفتية إلى ذلك ، إلا أن بعض القبائل رفضت ذلك ومنها قبائل بنو عمر ، هؤلاء حضروا إلى معسكر وأدوا صلاة الجمعة في مسجد الكبير « وفي هذه الأثناء اغتسم الأمير هذه الفرصة ليوضح لهم أن بيت المال في حاجة دائمة إلى المال لمواجهة النفقات الجارية ، وأن على القبائل أن تقوم بدفع المستحق عليها من الزكاة والضرائب بانتظام ، وقد تأثر زعماء القبيلة بلهجة الأمير وبالجو الديني الوطني الذي كان سائداً في المسجد ، حيث ألفوا أن يسمعو النداء تلو النداء لرفع السلاح والمضي للجهاد فقبلوا بدفع الضريبة والمعونة »⁽⁶⁾ . وفي إطار الصفا عن خصومه الذين ناصبوه العداء ، جهز حملة ضد مصطفى بن إسماعيل رأس المتآمرين عليه في منطقة السيق سنة 1834م ، وتمكن منه و « أصيب ابن إسماعيل بجراح وتفرق عليه أتباعه وهبطت قيمته ، بحيث لم يعد يمثل شيئاً ولكن كرم الأمير أبي إلا أن يعفو عنه ويعيده إلى مكانته ، بل بعث إليه يدعوه لمقابلته لإحلال الوئام محل الخصام ، كما عفا كذلك عن ابن أخيه المزاري »⁽⁷⁾ . هذه الإنسانية التي تميز بها الأمير لم تكن مع بني جلدته فقط وإنما كذلك مع النصارى والأوروبيين الذين اعترفوا له بهذه الخصال ، ومن بينهم مترجم الأمير يوهان كارل بيرنت الذي قال : « إن الأمير إنساني إلى أبعد الحدود وقد أوصى جنوده بذلك ،

وتسليماً وإعلاماً يقولون بالسنة أحوالهم» (10).

إن إنسانية الأمير عبد القادر لا حدود لها ، واعترف له فيها العدو قبل الصديق ، والمواقف كثيرة التي برهن فيها على كفاءته وأخلاقه العالية ودينه الراسخ ، ومن الأمثلة على ذلك ما تقدم به مساعد أسقف مدينة الجزائر من شهادة تاريخية لما حمّله رئيس الأساقفة رسالة إلى الأمير ، وبدأ في وصف هذه الرحلة حيث قال : « أثناء طريقي رحت أبرز أمر المهمة ، وهو موضوع تبادل الأسرى فأجد كل احترام وإكرام من القوات الجزائرية والفرسان الحمر الموزعين فوق الهضاب للحراسة ، وكان لابد لي من أدلاء لإبعادي عن مسرح العمليات العسكرية إلى أن وصلت إلى وادي موسى ، حيث وجدت الأمير عبد القادر وكان يجلس على الأرض ، ملابسه بسيطة كأبي جزائري من حايك عادي إلى برنس أبيض ، ولم يكن يحمل سلاحاً وفهمت منه أن حربه إسلامية ضد كفار معتدين لا يحترمون التعاليم المسيحية » (11). ويضيف قائلاً : « منع الأمير تحت طائلة العقوبة قطع الرأس والأذن ، أو أي أعمال وحشية على الرغم من أن أعداؤه كانوا يمارسونها ويرتكبون أفظع الأعمال ، وكان الأمير يتقيد بشكل دقيق بقوانين الحرب في الإسلام وبالشرعة التي فرضها الله ، فكان يكافئ كل مجاهد يأتيه بجندي فرنسي بحالة حسنة ، وإذا اشتكى الأسير من سوء المعاملة حُرّم المقاتل الجزائري من أي مكافأة » (12).

الأمير عبد القادر في دمشق :

إن من بين الأسباب التي تركت الأمير يختار دمشق كمنفى أخير له ، هو تأثره بها وبحضارتها وبعلموها وسر جمالها ، فلقد زارها أول مرة مع والده محي الدين في رحلته إلى الحج ، وهو في ذلك يقول : « كان سفرنا من المدينة المنورة على دفينها الصلاة والسلام

حيث كنت مع بعض الحرس في ندرومة ورحب بي الخليفة نفسه ، وأمر بإعطائي ألبة جديدة وبندقية ، كما قدم لي حصاناً استعمله ريثما يتصل بالسلطان ويتسلم منه أوامره بشأني » (8).

كان الأمير عبد القادر حريص أشد الحرص على تطبيق المبادئ الإنسانية، في الحروب التي خاضها أو حتى في حالة السلم ، وقدم في ذلك وصايا لجنوده وأتباعه يلزمهم بذلك وهي كلها خصال نابعة من دينه ، وهو نفسه في ذلك يقول : « إن المسلمين إذا تقاتلوا مع العدو ثم أن العدو طلب الأمان فنشر المسلمون المصحف وحلقوا أنهم لا يقتلونهم ، وجاءوا فيلزم المسلمين الوفاء وهو أمان لازم قاله الإمام ابن أبي زيد ، ومنها كذلك أنه يلزم المسلمون أمان الصبي الصغير المميز وأمان العبد ، ومنها أن الأمان من كل من يلزم أمانه يلزم بالكلام والإشارة من غير كلام ، إذا فهمت الأمان قال الشيخ خليل ، ومنها إن العدو إذا جاء إلى المسلمين وقال ظننت أنكم تؤمنوني فإنه يلزم أمانه ولا يتعرض له بسوء قال الشيخ خليل وأن ظنه حرب فجاء إلينا أمضى الأمان ، وأن المسلمين إذا أخذوا حرباً بأرض الحرب وعليه علامة الإقبال للمسلمين وقال جئت أطلب الأمان ، فيلزم أمانه وكذلك أخذ بأرض المسلمين أو بين أرض الإسلام وأرض العدو » (9). وإنسانيته لم تظهر فقط في معاملاته بل حتى في فكره من خلال راحة عقله وورائته « وحسن رأيه وميزان أقواله وأفعاله ، فيما يناسب الناس خاصة ويليق بمنزلهم كبراً وصغاراً ، ومواساة ومعاملة وإحسان يطيب بطيب القول ولين الكلام وخفض الجناح وحسن الأدب وسائر الخصال ، التي يمتدح بها من نشأ من مثل زاويته فلقد كان من ذلك بالمكان الأعلى والخط الأوفى ، يتعجب المريدون والوافدون أفواجاً لزيارة والده من ذكاء ذهنه وجودة قريحته وسعة أخلاقه ، بالقيام بأحوال الضيف إكراماً وإعظاماً

الحرب الطائفية :

ظهرت هذه الحرب في صيف 1860م وهي فتنة داخلية في الشام ، وكانت إرهاباتها الأولى قد بدأت في لبنان بين الطائفة الدرزية والطائفة المارونية ، وقد وقف بعض من المسلمين إلى جانب الطائفة الدرزية مما زاد في إثارة هذه الفتنة ، حيث «حدثت اضطرابات وقلاقل في جبال لبنان بين النصاري والدروز كما كانت تحصل من قبل ، ولكنها في هذه المرة اشتدت حتى بلغت درجة تكاد توصف بالحرب ، ورغم ما أجراه الأمير عبد القادر وشخصيات أخرى من مقابلات وتدخلات لدى الوالي التركي حتى لا يصل الاضطراب على الأقل إلى دمشق ، رغم هذا فإن الوالي لم يحرك ساكناً لأنه يجهل ما كان يجري في الأحياء بين الجماعات من أحداث ، تتم على عداة المسلمين للنصارى الذين اضطهدوا إخوانهم الدروز في جبل لبنان»⁽¹⁶⁾ وهناك أسباب حركت هذه

الفتنة الطائفية منها :

1- دور الاستعمار الفرنسي والبريطاني في تأجيج نار هذه الفتنة ، منذ أن تحصلت هذه الدول على حق امتياز حماية الأقليات المسيحية في الشام من الخلافة الإسلامية العثمانية ، « فكان الانجليز يسيطون نفوذهم على جبل الدروز ، وشملت فرنسا بحمايتها الموارد ، بينما أخذت روسيا على عاتقها حماية الكنيسة الأرثوذكسية ، وأخذت هذه الدول في تسليح الطوائف التابعة لها وتحريضها على التمرد والثورة ، الأمر الذي انتهى بما هو معروف بفتنة النصارى »⁽¹⁷⁾.

2- عدم مبالاة السلطة العثمانية بما كان يجري بالشام في الخفاء وبتخطيط من فرنسا ، التي كانت تريد التدخل في هذه المنطقة وبالتالي بسط النفوذ

في آخر المحرم ، فاتح السنة الثانية من ابتداء سفر الحج وفي ربيع الأول ، كان المثوى وطيب الثوى بدمشق الشام المسماة باسم بانيها ، غلام النبي الشكور نوح عليه السلام (مشجشق) ، وكانت الأرض وقتئذ عطلة ليس بها أشجار ، تأمل في البنيان ثم نظر في موضع حرثها ثم نظر في موضع حرثها وزرعها فألفها مكاناً أفيح متسعاً ، صالحة للعمارة بالغرس والحرث... واختط المدينة المذكورة وفضلها بالمزارع والفواكه ، أمر شهير قال المقرئ في نفح الطيب « لما دخلت دمشق وجدتها حقيقة بقول المادح للأندلس ، وقرية أن تشبه بها بلاد أسلافي يعني تلمسان »⁽¹³⁾. ومن هنا يمكن القول أن الأمير عبد القادر كان متأثراً بالشام من خلال زيارته ومن خلال ما قرأه حولها من مصادر التاريخ ، أما رحلته الثانية الإجبارية فكانت من فرنسا إلى تركيا وتحديداً بمدينة بورصة ثم الانتقال إلى الشام حيث « في سنة 1272هـ/1856م توجه الأمير إلى دمشق الشام بعد أن استأذن من السلطان رغبة منه في الاستقرار بها ، وفي طريقه إليها وافته وفود آل أرسلان وغيرها بجبال لبنان وكلهم يرغب في إقامته عندهم وهو يعتذر لهم وهكذا ، حتى وصل دمشق فنزل بداري (القباق) الحكوميتين واتخذهما دار سكناه ، وبعد مدة زار بيت المقدس وطاف بين مختلف المعالم الإسلامية والمسيحية ، ثم رجع إلى دمشق بعد أن عرج على قبر الإمام النووي »⁽¹⁴⁾. ولم يكن الأمير عبد القادر وحده في هذه الرحلة ، التي انطلق فيها من تركيا نحو الشام في شهر ديسمبر 1855م وبداية يناير 1856م « بل رافقه في هذه الرحلة حوالي مئة وعشرة شخص ، وأكثر من ثلاثين شخص من أسرته ، وفي الشام اهتم الأمير بالقراءة خاصة كتابات المتصوفة ، ومن بينهم ابن العربي كما اهتم بالتدوين ، وبترقية أبنائه ومنهم محمد ، محي الدين ، الهاشمي ، إبراهيم في مجال العلوم والفقه »⁽¹⁵⁾

وفرض الأمر الواقع.

3- محاولة الطائفة المارونية وبدعم من رجال الكنيسة، إعادة حكم الأمير بشير الذي انتهى بعد خروج المصريين من منطقة الشام، وكان هذا الأمير يلقي قبول واستعطاف هذه الطائفة.

4- أما الأسباب الاقتصادية فتعود إلى ذلك الصراع الموجود منذ فترة طويلة، بين البورجوازية الدرزية الزراعية والتجارية، والطبقة الريفية الفلاحية المارونية حول السيطرة على الأراضي في لبنان ودمشق وما جاورها.

5- وهناك سبب آخر ذكره المؤرخ برونو إيتين حول تقرير قدمه القائم بالأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق السيد لانوس LANUSSE، وملخص هذا التقرير « أنه بتاريخ 1860/06/19م بشهر قبل الأحداث علم القنصل بقيام أحداث في دمشق، وأن المخطط سينفذه أحمد باشا وأنه استمد المعلومات من الأمير عبد القادر الذي وقف في هذا الظرف كما في الماضي بالنسبة للقنصلية موقفاً جديراً بكل ثناء، عندما علم الأمير بالخطر المحدق بالأوروبيين والمسيحيين، جاء من تلقاء ذاته ليضع نفسه تحت تصرفي وليؤكد لي عونه في حال الخطر، وقد عرض في مثل تلك الحالة أن يجمع كل الجزائريين المخلصين له، وأن يكون على رأسهم من أجل حماية الحي المسيحي »⁽¹⁸⁾. إلا أن هذا التقرير فيه كثير من التحامل على الأمير، فهذا الأخير لم يكن يريد التنسيق مع الحكومة الفرنسية في مسألة داخلية تخص الخلافة الإسلامية العثمانية، كما أنه لا يريد التدخل الأجنبي في المنطقة خاصة الفرنسي منه، وقد أبرز شارل هنري تشرشل ذلك بقوله: « لم يترك الأمير عبد القادر مجالاً لتدخل القوات الأجنبية في دمشق سنة 1860م بحجة إنقاذ المسيحيين، وكان الوحيد في البلاد الذي اكتشف المؤامرة قبل التنفيذ، واستعد

لها وأخمدتها بمساعدة رجاله من المهاجرين الجزائريين الأبطال، وعائلات دمشقية كانت تسكن في جواره في حي العمارة وأخرى في حي الميدان، فتحت دورها لاستقبال العائلات المسيحية وحمايتهم من الغوغاء »⁽¹⁹⁾. كما أن لانوس أظهر دور اليهود الإنساني في حماية المسيحيين، وأغلب الدراسات التاريخية لم تشر إلى ذلك، كما أن هذا التقرير أشار إلى أن القنصل الفرنسي كان على علم بشهر قبل حدوث هذه الأحداث وهذا افتراء وتلفيق، فهي فترة كافية لاستعداد الجيوش الفرنسية للتدخل بما أنها كانت تبحث عن الفرصة المواتية.

مجرى الأحداث :

انطلقت الأحداث بتاريخ 1276/12/21 الموافق ل 1860/07/09م من جبل عامل وزحلة وامتدت إلى دمشق، وشكلت فرق عسكرية درزية ومسلمة وقابلتها فرق مارونية، وواصلت هذه الأحداث إلى الأحياء الدمشقية وأصبحت الفرق المارونية قلة إذا ما قورنت بالفرق الدرزية، كما حوصرت بعض القنصليات الأوروبية الفرنسية والأمريكية والهولندية وحتى البريطانية، وبدأت عمليات القتل المنظمة والنهب وحرق بعض الكنائس التي كانت موجودة في دمشق وممتلكات الطبقة البورجوازية، وبدأت الدول الأوروبية تستعد للتدخل، هنا استشعر الأمير عبد القادر والذي كان مقيماً في دمشق بالخطر الذي أصبح يهدد الشام برمتها، ومن منطلق ما يفرضه عليه واجبه الديني والأخلاقي والإنساني، بدأ يفكر في الطرق الكفيلة بإحلال السلم محل الحرب والفتنة، وكان للأمير في هذه الحادثة المؤلمة « مواقف مشرفة تدعو إلى الإعجاب إذ استطاع أن ينقذ أكثر من 15 ألف من النصارى، بعث بهم إلى منازلهم التي غصت بهم وبعد خمسة عشرة يوماً استطاع الأمير أن

مثل منطقة القلعة ، كما حافظ على حياة النساء والشيوخ والأطفال.

3- أَمَّن الطرق والمسالك للفارين إلى بيروت، وأرسل إليهم بحراسة رجاله فوج بعد فوج، وكان نتيجة ذلك خروج المئات من المسيحيين المتجهين إلى لبنان.

4- خاطب الأمير في الناس يدعوهم إلى الهدوء والتبصر والحكمة، كما طالبهم بالكف عن إيذاء المسيحيين « وكان في ندواته العلمية في المسجد الأموي وفي دار الحديث النووي وفي داره أحياناً ، يحذر الجميع ويحثهم على اليقظة إزاء المؤامرات التي تحاك في الظلمة ، وكان يبصر الوجهاء والأعيان بعواقب التفرقة بين أبناء الشعب ويحذرهم من أخطار الصدام بين الطوائف ، وكان يدعوهم إلى عدم الثقة بوعود الدول الأوروبية الاستعمارية التي تستعين بالفتن الطائفية وتغذيها وتلهبها » (23).

5- توفير طرق أمنية لحماية المصالح الحكومية ومنها قنصليات الدول ، ونوه الجميع بجهود الرجل في حماية حياتهم من خطر هذه الفتنة ، وهاهو لانوس قد اعترف بذلك حيث قال : « إنني أنقذت لأن مقرري موجود في الحي المسلم ، ونائب قنصل النمسا مع زوجته عندي وقنصل فرنسا وروسيا واليونان لدى الأمير عبد القادر ، وقد لجأ حوالي 4000 مسيحي إلى القلعة وهكذا تبدو حالات القتل قليلة ، لقد نوه جميع الشهود بصورة خاصة بدور الأمير عبد القادر حيث أُلجأ كل من طرق بابيه وقام بجولة في المدينة لحماية الهاربين ، و الذين بدون ملجأ طالبهم بالانضمام إلى القافلة الصغيرة التي نظمها تحت حراسة جزائرية ، وانطلق بها لإنقاذ القنصل والرعايا الفرنسيين المقيمين في دمشق » (24). تمكن الأمير عبد القادر في الأخير من إنقاذ الآلاف من المسيحيين، وبذلك أنقذ دمشق والشام من حرب عاصفة، وأنقذ

يحول عشرة آلاف جندي فرنسي إلى فرنسا ، بعد أن كانوا يستعدون لنسف بيروت بقنابلهم المدمرة ويفرق جميع المراكب التي كانت ترابط هناك تنتظر تطور الأحداث » (20). وتضاربت الأرقام والتقديرات حول عدد الذين حماهم الأمير عبد القادر ، فمثلاً يذكر الباحث الشيخ بوعمران أن الأمير هب لنجدة الأقلية المارونية بمساعدة 300 رجل مسلم جزائري ، وبدأ في تجميعهم بمنزله الموجودة في مدينة دمشق وتمكن من حماية 12000 مسيحي (21). وبالرغم من هذا الاختلاف في التقديرات ، إلا أن ما يمكن قوله أن الأمير قام بمجهود إنساني لا نظير له ، حيث هب مع رجاله « إلى الأحياء المسيحية لرد المهاجمين عنها ونصحهم بالكف عن اعتداءاتهم ، وبث رجاله في الأمكنة التي لجأ إليها المسيحيون ، وقد التجأ إلى بيت الأمير أعيانهم والرهبان والراهبات والقناصل، ولما ضاقت بهم داره بعث قسم منهم إلى قلعة المدينة ليحتمو بها ، كما احتفى بحي السوق مسيحيو الميدان وكان من جراء ذلك مقتل عدد من الجزائريين » (22).

طرق وسبل حماية الأمير عبد القادر للمسيحيين:

نظراً لخطر هذه الفتنة وقوة عدد المشاركين فيها من الطرفين استخدم الأمير عبد القادر أساليب لحماية المسيحيين ومنها:

1- جهز ما بين 300 إلى 1000 شخص من رجاله لتوفير الحماية والأمن، وكان هؤلاء الرجال ممن يثق فيهم الأمير وأكثرهم من الجزائريين وأقلية من المغاربة.

2- توفير البيوت والملاجئ التابعة له و التي كانت من ممتلكاته، أو بيوت المسلمين الدمشقيين لإيواء الفارين من المسيحيين وتوفير الحماية والأمان لهم

المسيحية في دمشق دون استثناء ، مدينون بحياتهم للأمير عبد القادر عندما وقعت الفتنة ، يا له من قدر عجيب وفريد من نوعه ، عربي من سلالة النبي محمد (ص) يحمي ويصون عروش المسيح ويحمّد هياج أوروبا المسيحية وغضبها»⁽²⁷⁾. كان لموقف الأمير عبد القادر الإنساني في هذه الفتنة صدى كبير في العالم والمجتمع الدولي آنذاك ، فجاءته رسائل الشكر مصحوبة بالنياشين والأوسمة من جميع حكام ورؤساء وملوك الدول الأوروبية خاصة ، كما نوهت الصحافة العالمية بجهوده وخصاله ومواقفه النبيلة والإنسانية، « ومن النماذج عن الهدايا التي تلقاها الأمير من حكومات هذه الدول مثلاً روسيا قدمت له الصليب الأكبر للنسر الأبيض ، والسلطة العثمانية منحتة وسام المجيدية من الدرجة الأولى ، وفرنسا أرسلت له الوشاح الأكبر لجوقة الشرف ، كما بعثت له بريطانيا أسلحة من بنادق ومسدسات مطعمة بالذهب ونفس الشيء بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية »⁽²⁸⁾. ورسائل كثيرة من بعض الشخصيات المرموقة في تلك الفترة، إن الأمير عبد القادر لعب دوره التاريخي (29) الذي كان من المفروض أن يلعبه فهو رجل مقاوم شرس عابد ناسك متخلق، استلهم هذه المبادئ الإنسانية من دينه الإسلامي.

خاتمة:

انتهت أزمة الشام الطائفية بفضل الجهود الإنسانية التي قام بها الأمير عبد القادر، وكان من نتائج هذه الفتنة أن أصدرت السلطات العثمانية مجموعة من الأحكام القضائية ، منها الحكم بالإعدام على 57 شخص من عناصر الجيش الذين كان لهم دور في إثارة الفتنة ، كما نُفذ الحكم في والي دمشق أحمد باشا الذي لم يقدّر بواجبه في هذه الأحداث ، كما حكم بالمؤبد على أكثر من 723 شخص ونفي

الإنسانية من شوارع الحقد والانتقام كان يطول مداه لولا جهود هذا الرجل.

الاعتراف العالمي:

لن تنس الدول المسيحية الأوروبية والشام والعالم ككل، جهود الأمير عبد القادر الجزائري في سبيل ترسيخ القيم والمبادئ الإنسانية ، وتحافتت بعض الشخصيات العلمية والدول في إرسال الهدايا والأوسمة ورسائل الشكر والعرفان ، فها هو الكاردينال لافيغري يصف لقاءه بالأمير عبد القادر في شهر سبتمبر 1860م بقوله : « بطلب مني وقبل مغادرتي دمشق التقيت بالأمير عبد القادر ، والذي اختار هذه المدينة كمنفى وإقامة له بعد حربه في الجزائر وأقامته مدة في فرنسا ثم تركيا ثم دمشق ، هذا المسلم يتصف بالقوة والشجاعة التي لا نظير لها تمكن من خلال الخصال التي تتوفر لديه ، من حماية الآلاف من المسيحيين الفارين نتيجة الحقد الديني ، إن القليل من الرجال من يمتلكون هذه التضحيات التي تتوفر في شخص الأمير عبد القادر، وهذا ما استوجب علي فعله عند نهاية زيارتي حيث قدمت له الشكر باسمي وباسم الكنيسة الكاثوليكية »⁽²⁵⁾.

ساهم الأمير عبد القادر مساهمة كبيرة في إطفاء نار الفتنة ، كان كتلة من الهمة العالية والإخلاص وإن في قلبه كانت راسخة مبادئ الإسلام، « فكان إذا رأى منكراً غيره بيده، لقد أوضح بأن للوطن حرمة وللمواطنين قداستهم المنبثقة من الحرمة وإن تلك الحرمة لا تكون بالخناجر والسيوف ومعاول الهدم والصياح، بل بالوحدة التي لا ينهض بها شيء كروح الشهامة وحماية كل جار جاره يكف عنه الشر، وبأن ينزل الجميع على مبادئ العدل والتسامح والمحبة »⁽²⁶⁾. وفي كتاب تشرشل وقفات اعتراف لجهود الرجل ، عندما ذكر أن جميع ممثلي الدول

الهوامش

- 1- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق. دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، الجزائر. 2000م. ص 38
- 2- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر. تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة، الجزائر الطبعة السابعة. 2010م. ص 223
- 3- عمر سعد الله، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007م. ص 87
- 4- عمر سعد الله، نفسه. ص 82
- 5- عمر سعد الله، نفسه. ص 82
- 6- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1982م. ص 60
- 7- إسماعيل العربي، نفسه. ص 62
- 8- يوهان كارل برنت، الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2003م. ص 122
- 9- الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان بدون تاريخ، ص 226
- 10- الأمير عبد القادر الجزائري، المذكرات، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849م تنشر لأول مرة، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح أيجون، دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر 2008م، ص 63
- 11- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، دار المعرفة للنشر، الجزائر 2008، ص 60

حوالي 145 شخص إلى خارج الشام . إن المنطلق الفكري الذي استند إليه الأمير للقيام بواجبه الإنساني ، هو ترسيخ قيم التسامح ومحاولة إيقاف الخلاف والشجار الديني بفتح مجال للحوار ، وتهذيب لغة الخطاب حتى تصير متوافقة مع منهج الأديان، وإرساء سبل الأخوة والمساواة بين الأديان السماوية الإسلامية والمسيحية لتجنب مخاطر العنف مستقبلاً (30). يقول ديبوش : « لا يمكن أن يقوم بهذا إلا رجل عظيم ، فهو يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير مسلمين كانوا أم مسيحيين ، إذ قلما يجود التاريخ بقيادة يتصرفون بوحى العقل والدين ، كما تصرف الأمير فهؤلاء مفاخرنا تجاه الإنسانية كلها ، فالإسلام لا يطلب من الإنسان أن يكون مجاهداً ليصبح محارباً ، بل يطلب منه أن يكون مجاهداً ليصبح إنساناً كاملاً » (31).



- 12- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، نفسه ، ص62
- 13- الأمير عبد القادر الجزائري، المذكرات ، نفسه .ص 128
- 14- يحي بوعزيز ، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1983، ص70
- 15- BOUALEM BESSAIH, De L'émir Abdelkader à L' imam Chamil, Le héros Des Tchétchènes et du Caucase, ENAG, Alger 2008. P 286
- 16- يحي بوعزيز ، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، نفسه ص71
- 17- فتحي دردار ، الأمير عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية 1832-1847، تصنيف وتصميم psisolutech الجزائر، بدون تاريخ، ص108
- 18- برونو إيتيين ، عبد القادر الجزائري ، ترجمة المهندس ميشيل خوري ، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية لبنان 2001م ، ص 314
- 19- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، ترجمة أبو القاسم سعد الله ، الطبعة الأولى ، المطبعة العلمية دمشق 2001م ، ص127
- 20- يحي بوعزيز ، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، نفسه ص71
- 21- Bouamrane cheikh, L'émir Abdelkader, Résistant et Humaniste, éditions ENAP2001.P101
- 22- جواد المرابط، التصوف و الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق 1966م ، ص45
- 23- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، تفاصيل دقيقة عن جهاد و الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار الفكر ، الطبعة الأولى 1423هـ.ص208
- 24- برونو إيتيين ، عبد القادر الجزائري ، نفسه ص317-315
- 25-PERE J CUSAC, Un géant de L'apostolat Le cardinal la vigerie , Librairie Missionnaire 26 rue vavin Paris1903. P 18
- 26- جواد المرابط، التصوف و الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، نفسه ، ص45
- 27- نفسه ، ص 46
- 28- Bouamrane cheikh, p101
- 29- BOUALEM BESSAIH, p291
- 30- ABDELAZIZ FERRAH, Le temps D'une Halte Rencontre Avec L'émir Abdelkader, Deuxième édition, Les éditions APIC 2004, P 282
- 31- فتحي محمد : « تجليات القيم الانسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج (كتاب الأمير ، مسالك أبواب الحديد) » المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر عدد خاص مارس 2012م. ص90